

١ - الصُّوفِيَّة

يعرف أبو نصر الطوس - ت سنة ٣٧٨هـ - الصوفية بأنهم «هم أمناء الله - عز وجل - في أرضه ، وخزنة أسرارهِ وعلمهِ ، وصفوته من خلقهِ ، فهم عباده المخلصون ، وأولياؤهُ المتقون ، وأحباؤهُ الصادقون الصالحون ، منهم الأخيار والسابقون ، والأبرار المقربون ، والبداء والصديقون ، هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم ، وزين بمخدمته جوارحهم ، وألهم بذكره ألسنتهم ، وطهر بمراقبته أسرارهم ، سبق لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية ، فتوجههم بتاج الولاية ، وألبسهم حلل الهداية ، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفاً ، وجمعهم بين يديه تلطفاً ، فاستغنوا به عما سواه ، وآثروه على ما دونه ، وانقطعوا إليه ، وتوكلوا عليه ، وعكفوا ببابه ، ورضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وفارقوا فيه الأوطان ، وهجروا له الإخوان ، وتركوا من أجله الأنساب ، وقطعوا فيه العلائق ، وهربوا من الخلائق ، مستأنسين به ، مستوحشين مما سواه ، (ذلك

فضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم^(١) .
 بهذا حدد معالم سلوكهم ومقاماتهم وأحوالهم . . استغناء بالله عما سواه ،
 واستغراق في الله بحجب كل ما عداه ، وحجب لله يضىء كل طريق ، يفرج كل
 ضيق ، يُنسى العدو والصديق ، فلا ترى العين إلا وجهًا واحدًا ، ولا يستشعر
 القلب إلا فيضًا غامرًا ، ينحصب الوجود ، وينسخ الحدود ، فلا يبقى زمان ،
 ولا يبقى مكان .

فقه الطريق إشراق ، لا يستشرف له إلا الصفوة الخالصة ، الأمانة ،
 البرّة ، الصادقة ، الصابرة ، الجاهدة ، المتخلية ، الذاكرة ، المستعنية ،
 العالمة ، المتنورة دائماً .

ومن ثم فالولاء ، والصفاء ، والعطاء أبدأ .
 مثل أبو الحسن القنّاد - رحمه الله - عن معنى الصوفى ، فقال : مأخوذ
 من الصفاء ، وهو القيام لله - عز وجل - في كل وقت ، بشرط الوفاء .
 وسئل آخر ، فقال : إن العبد - إذا تحقّق بالعبودية ، وصافاه الحق حتى
 صفا من كدر البشرية - نزل منازل الحقيقة ، وقارن أحكام الشريعة ، فإذا
 فعل ذلك فهو صوفى ، لأنه صوفى^(٢) .

وكان يمكن الاكتفاء بهذا التعليل . . لكن أورد السهروردى أسبابًا أخرى
 للتسمية ، نوردّها لإثبات أصالة اللفظ في العربية . بما يحمل في معانيه المختلفة
 من سمات القوم .

يقال : «تصوّف» ، إذا لبس الصوف ، كما يقال : «تقمّص» ، إذا

(١) اللع - دار الكتب الحديثة سنة ١٩٦٠ - ص ١٩ .

(٢) اللع - ص ٤٦ و ٤٧ .

لبس القميص ، وكان اختيارهم للبس الصوف ، لتركهم زينة الدنيا ،
وقناعتهم بسد الجوعة ، وستر العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة . .

وقيل : سُمُوا صوفية ، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل ،
بارتفاع همهم ، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ، ووقوفهم بسرائرهم بين
يديه .

وقيل : نسبة إلى « الصفة » التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول
الله ﷺ (٣) . .

وهناك تعليقات أخرى . كأن يقال : إن أول شخص وقف نفسه كلية
لخدمة الله جل وعلا ، وكان يحاور الكعبة - اسمه « صوفة » ، وحقبة اسمه
الغوث بن مرة ، وسبب تسميته صوفة . أن أمه ما كان يعيش لها ولد ، فنذرت
لئن عاش لتجعلنه ربيب الكعبة ، وتجعلن في رأسه صوفة . وفعلت ، فقبل له
صوفة ، ولولده من بعده .

وقيل في « صوفة » : إنه حين ارتبط بالكعبة أصابته الشمس ، فسقط
واسترخى ، فقالت أمه : ما صار ابني إلا صوفة .

وقال السمعاني في الأنساب : هي من بني صوفة ، وهم جماعة من العرب
كانوا يتزهدون ، ويقللون من التهاق على الدنيا ، فنسب هذه الطائفة إليهم .
وقيل : سمى صوفياً ، لأنه كالشعرة هيئ لـ (٤) .

أقوال كثيرة ، لعل أقربها إلى المعقول ارتباط التسمية بالواقع الإسلامي ،

(٣) حوافر المعارف لأبي حمص عمر السهروردي - دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٦٦ ص

٦٠ و ٦١ .

(٤) انظر تليس إبليس لابن الجوزي - إدارة المطبوعات النورية بالقاهرة بلا تاريخ - ص ١٥٦ .

من الصفاء والصف والصفة .

وقد شجب الدكتور عبد الحليم محمود النسبة إلى الصفاء والصف والصفة ، لأن اشتقاق « صوفى » منها « بعيد فى مقتضى اللغة » . . . وأنكر ما ذكره البيرونى من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة « سوف » اليونانية ، التى تعنى الحكمة ، لسبب بسيط هو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى العربية ، وأيد ذلك بقول الدكتور زكى مبارك : وما الذى يمنع أن تكون « سوفيا » - بمعنى الحكمة الروحانية - جاءت من كلمة « صوف » ، وهى قديمة فى العربية ؟ ومع هذا أنكر أن تكون نسبة إلى « الصوف » ، لأن « القوم لم يختصوا بلبس الصوف » ، ثم عاد ليقول : « إن هذه الكلمة - تصوف - لم توضع فى الأصل للتصوف بمعناه العادى الذى نفهم الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا . . . والزهاد كانوا موجودين فى العصر الجاهلى ، تديناً ، أو منطقياً ، وكانوا موجودين فى صدر الإسلام . تديناً ، أو منطقياً . . . حتى إذا ذاع التصوف وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا ، لابسين للصوف - أطلقت الكلمة عليهم » . . . ثم يقول « وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهى موفقة كل التوفيق ، إذ إنها تمتّ بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف ، كالصفاء والصف والصفة و « سوفيا » اليونانية ، التى تدل على معرفة الغيب ، على وجه الخصوص » . . . وكأنه بهذا يمضى إلى تأييد ما ذهب إليه الشيخ عبد الواحد مجبى (رينيه جينو) من « أنها فى الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف

« الحكمة الإلهية » ، ويكون الصوف الحقيقي إذن هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه « العارف بالله » ، إذ إن الله لا يعرف إلا به ^(٥) . . . ولما كانت « الحكمة الإلهية » لا تتوافر إلا إذا « صافاه الحق » ، فكلمة « صوف » أولى أن يكتب في تعليلها بما أورد الطوسي ، وأكدته بNDAR بن الحسين - ت سنة ٣٥٣ هـ - حين سئل عن الفرق بين الصوف والمتصوف ، فقال : الصوف من اختاره الله لنفسه فصافاه ، وعن نفسه براه ، ولم يردّه إلى تعمّل وتكلف ، وصوف على وزن عُوف ، أى عافاه الله ، والمتصوف المراحم على المراتب ، مع تكلف ، وكون رغبته في الدنيا ^(٦) .

وقال شاعرهم : صافى فصوص حتى سمي الصوف .
وقال أبو العباس المرسى - ت سنة ٦٨٠ هـ - إنه منسوب لفعل الله تعالى به ، أى صافاه الله تعالى فصوص ، فسمى صوفياً ^(٧) . . .
و« المصافاة » لا تتحقق إلا « بعلوم ذوقية » لا يكاد النظر يصل إليها إلا بدوق ووجدان » . . .

يقول حجة الإسلام الغزالي : « اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعلم ، بل بالدوق والحال ، وتبدل الصفات » ^(٨) . . .

(٥) مقالات ملحقة بكتاب (المقصد من الضلال) للغزالي - دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - ص ١٥٤ - ١٦١ .

(٦) الرسالة القشيرية - دار الكتب الحديثة سنة ١٩٦٦ ج ١ حاشية ص ١٧٥ .

(٧) الطبقات الكبرى للشعراني - الحلبي سنة ١٩٥٤ - ج ٢ ص ١٨ .

(٨) المقصد من الضلال - ص ١٢٣ و ١٢٤ .

والدوق والحال وتبدل الصفات « لا تحصل مع محبة الدنيا ، ولا تنكشف إلا بمجانبة الخوى ، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى ، قال الله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) ، جعل العلم ميراث التقوى ، وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك » ، ولقد « قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، ذكر بكلمة « إنما » ، فيتنى العلم عن لا يخشى الله (٩) » . . . ومع أن التعليل الأخير فيه نظر ، إذ يمكن القول إن الله سبحانه قصر الخشية على العلم ، فإن من المعلوم أن « علوم الوراثة مستخرجة من علوم الدراسة ، ومثال علوم الدراسة كالتلخيص الخالص السائق للشاربين ، ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه » (١٠) . . . ذلك ، لأن علوم الدراسة هي التي تهذب النفوس . وتجلو القلوب والعقول ، وتبيى المناخ للرياضات الروحية التي تعين على « الكشف » ، واستلهاج « العلم اللدني » .

« قبل للحسن البصري : هكذا قال الفقهاء » فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا .

فالمصوفية أخذوا حظاً من علم الدراسة ، فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما علموا بما عملوا أفادهم العمل علم الوراثة ، فهم مع سائر العلماء في علومهم ، وتميزوا عنهم بعنوم زائدة ، هي علوم الوراثة ، وعلم الوراثة هو الفقه في الدين ، قال الله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) ، فصار الإنذار مستفاداً من الفقه ، والإنذار إحياء المنذر بماء العلم ، والإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين ، فصار

(٩) عوارف المعارف - ص ٣٥ - ٣٧ .

(١٠) عوارف المعارف - ص ٣٩ .

الفقه في الدين من أكمل المراتب وأعلاها .

« عن معاوية : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من يرد الله به خيراً يفقه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى » .

« وروى عن عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه في الدين .

والحق - سبحانه وتعالى - جعل الفقه صفة القلب ، فقال : (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا ! اهتموا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة ، وأكثر انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين » (١١) .

والانقياد لمعالم الدين ، والاستشراق لنور اليقين ، هما قوام التصوف . .
« سئل النبي - ﷺ - عن قوم تركوا العمل بالدين ، وأحسنوا الظن في الله ، فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . صدق رسول الله .
وسئل ذو النون المصري - ت سنة ٢٤٥ هـ - بماذا عرفت الله تعالى ؟
فقال : « عرفت الله بالله ، وعرفت ما سوى الله برسول الله » .

وقال أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد - ت سنة ٢٩٧ هـ - : « علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله ، عليه الصلاة والسلام » .

وقال : « لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان » .

وقال أبو سليمان الداراني - ت سنة ٢١٥ هـ - : « ربما تنكث الحقيقة قلبي أربعين يوماً ، فلا أذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة » .

(١١) عوارف المعارف - ص ١٤ - ١٦ .

وقال أبو الحسن الشاذلى - ت سنة ٦٥٦ هـ - : « إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة . »

وقال ابن عربى - ت سنة ٦٣٨ هـ : « لا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً ، وخرج عن دين الله . »

ولم يقف التصوف عند حدود « التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى : وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » - كما عبر سهل التسترى - ت سنة ٢٨٣ هـ - عن أصول التصوف - بل إن « الطريق » اتسع لألوان من الرياضات النفسية والجسمية .

قال الجنيد : « بنى الطريق على أربع : لا تكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقة ، ولا تنم إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية . »

وقال : « الصوفى هو الذى سلم قلبه كقلب إبراهيم من حب الدنيا ، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله ، وتسليمه تسليم إسماعيل ، وحزنه حزن داود ، وفقره فقر عيسى ، وصبره صبر أيوب ، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة ، وإخلاصه إخلاص محمد ، ﷺ . »

... وازداد (الطريق) عمقاً ، فصار « التصوف ترك كل حظ للنفس » ، كما قال أبو الحسين النورى - ت سنة ٢٩٥ هـ : « أن يكون كل شيء ملكاً لك ، ولا تكون ملكاً لأى شيء »^(١٢) ، كما قال سمنون بن حمزة « المحب » .

(١٢) الأحوال السابقة من (النقد من الضلال) ص ٢١٠ - ٢١٢ و (اللمع) ص ١٤٤ - ١٤٦ و (الرسالة القشيرية) ص ١٠٥ - ١١٢ و (الفتوحات) ج ٢ ص ١٦٤ ، مع تغيير فى الترتيب .

بمعنى أن تتخلى عن الدنيا ، فلا تملكك شهوة فى شىء منها ، وبهذا تملك كل شىء يزهدك فى كل شىء ، وتفرغك لخالق كل شىء . . وهذا ما يخالف بين الصوفية والفقهاء ، « فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا » (١٣) .

« إن طبقات الصوفية اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث فى معتقداتهم ، وقبلوا علومهم ، ولم يخالفوهم فى معانيهم ورسومهم ، إذا كان ذلك عجاباً للبدع واتباع الهوى ، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء ، وشاركوهم بالقول والموافقة فى جميع علومهم . .

فإذا اختلفوا فاستجاب الصوفية فى مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم ، احتياطاً للدين ، وتعظيماً لما أمر الله به عباده ، واجتناباً لما نهاهم الله عنه » (١٤) .

وزادوا ، فلم يكن الأحسن والأولى والأتم سلوكاً فحسب ، بل الأحسن والأولى والأتم حالا .

ولهذا « بدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين شغلتهم أموالهم وأهلوههم ، وبدعوا يحطمون الشرك ، يحطمون أصنامهم وأركانهم ، من النفس ، والهوى ، والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الإنسانية ، وانهار الشرك حتى من همسات الفؤاد ، لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفى ، وثبت فى أذواقهم ، واستقر فى أحوالهم ، ومقاماتهم : أن

(١٣) المنقذ من الضلال - ص ١٢٤ .

(١٤) الملع - ص ٢٨ .

(لا إله إلا الله) ، وأنه (أينا تولوا فثم وجه الله) (١٥) .
 وانتهى الأمر إلى أن « التصوف شرك » - كما قال أبو بكر الشبلي - ت سنة
 ٣٣٤هـ - : « لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ، ولا غير » (١٦) .

• • •

والذين يصبحون ربانيين ، ويملاً الحق - جل وعلا - قلوبهم وسمعهم
 وأبصارهم وجوارحهم بفيض من نوره ، فلا يرون سواه ، ولا ينشغلون بغيره ،
 (بحبهم ومحبه) ، يكون سلوكهم « التوجه إلى الله تعالى ، والانقطاع إليه ،
 والمعكوف على بلائه ، والرضا عن قضائه .

ومداومة المحافظة على القلوب ينفي الخواطر المذمومة ، ومساكنة الأفكار
 الشاغلة التي لا يعلمها غير الله عز وجل ، حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة .
 والإيثار في وقت الحاجة إليه ، وحسن الظن بالله ، والمصارعة إلى جميع
 الخيرات .

والقناعة بقليل الدنيا وكثيرها ، وإيثار الجوع على الشبع ، والتواضع للصغير
 والكبير » (١٧) .

يقول أبو بكر الكتاني - ت سنة ٣٢٢هـ - : « التصوف خلق ، فن زاد
 عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء » .

ويقول أبو محمد الجري - ت سنة ٣١١هـ - : « ليس التصوف رسماً ولا

(١٥) المنقذ من الضلال - مقالات الدكتور عبد الحليم محمود - ص ٢٤٠ .

(١٦) كشف المحجوب للهجویری - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ ج ١ ص ٢٣٤ .

(١٧) اللع - ٢٩ و ٣٠ .

علمًا ، ولكن خلق ، لأنه لو كان رسمًا لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علمًا لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله .

ولقد حاول ابن سينا التفريق بين الزاهد والعابد والصوفي ، وبين أهداف كل ، فقال : « الْمُعْرِضُ عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد . . والمواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص باسم العابد . . والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديمًا لشروق نور الحق في سره ، يخص باسم العارف » . والعارف عند ابن سينا هو الصوفي .

والكل متفق على أن زهد غير الصوفي إنما هو الاستمتاع بالآخرة ، فهو نوع من المعاملة : كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة . . أما الصوفي فإنه يزهد في الدنيا ، لأنه يشتره عن أن يشغله شيء عن الله . .

وعبادة غير الصوفي هدفها دخول الجنة ، فمثلته مثل الأجير ، يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره في المساء . . أما عبادة الصوفي فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله لأنه مستحق للعبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة ولا لرهبة .

تقول رابعة العدوية - ت سنة ١٨٥ هـ - « اللهم إن كنت أعبدك خوفًا من نارك فألقني فيها ، وإن كنت أعبدك طمعًا في جنتك فأحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم فلا تحرمني من رؤيته » .

وقالت لجماعة من رجال الله : « رأيتم لو لم يخلق جنة ولا نارًا ، أليس هو بأهل أن يعبد ؟ ! » .

وقالت جارية عتاب الكاتب :

يا منايًا وسيدى واعتمادى

طال شوق متى يكون لفاكا

ليس سؤالى من الجنان نعيمًا

غير أنى أريدها لأراكا

ولهذا لم يكن التصوف كرامات ولا خوارق عادات . . إنه خلق يتجاوز الكرامات والخوارق إلى ما هو أسمى .

قال أبو سعيد الخراز - ت سنة ٢٦٨ هـ - الصوفي : « من صفى ربه قلبه ، فامتلاً قلبه نوراً ، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله » .

وقال أبو بكر الكتانى : « التصوف صفاء ومشاهدة » .

وقال الجنيد : « التصوف هو أن يملك الحق عنك ، ويحيك به » .

وقال جعفر الخلدى - ت سنة ٣٤٨ هـ : « التصوف طموح النفس فى العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية » .

وقال الشبلى : « بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده » .

وقال الإمام الغزالى : « الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المدمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وبمها حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم » وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرّة بلطف

الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية » (١٨) .

ولعل هذا داخل في إطار ما جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخارى : « من عادى لى ولياً - فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بالنافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيت به ، ولن استعاذنى لأعبدنه » (١٩) .

لما دخل بغداد أبو عبد الرحمن حاتم الأصم - ت سنة ٢٣٧ هـ - اجتمع إليه أهل بغداد ، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، أنت رجل أعجمى ، لكن ليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معى ثلاث خصال ، بين أظهر على خصمى ، أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى ألا أجهل عليه .

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل ، فقال : سبحان الله ، ما أعقله ! ! وجاء إليه ، فسأله : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامة من الدنيا ؟ قال حاتم : يا أبا عبد الله ، لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شينهم آيساً (٢٠) .

وهذا يحتاج إلى قدر غير مألوف من المجاهدة النفسية الطويلة ، حتى يتحقق

(١٨) الأنوال السابقة من (المفرد من الضلال) ص ١٦٢ - ١٧٠ ما عدا قول جارية كتاب لمن (الفتوحات) ج ٢ ص ٣٥٩ .

(١٩) الرسالة القشيرية - هامش ص ٢٣٦ .

(٢٠) عوارف المعارف - ص ٣٧ .

قول الحق ، سبحانه : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٢١) . . إذ « يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجي وظماً المواجه ، وتأنجج فيهم نيران الطلب ، وتتجلبب دونهم لواعع الأدب ، يتقلبون في رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة » ، بحيث لا يكون الذكر إلا لله ، ولا يكون الافتقار ، لما عداه ، ولقد كان رسول الله - ﷺ - دائم الافتقار إلى مولاه ، وإنه يقول : « لا تكلني إلى نفسي طرفه عين ، اكأني كلاءة الوليد » (٢٢) .

• • •

و« الكلاءة » نور يغسل به المول قلب عبده المؤمن ، فلا يدع فيه غير الحقيقة الربانية . .

لما سئل رسول الله - ﷺ - عن معنى « الشرح » في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) (٢٣) . . قال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » ، فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » (٢٤) . .

والتجافي والإنابة يحققان الطهارة الروحية ، والصفاء النفسي ، والتسامي ، بحيث يخلص العبد الصالح من ذاته ، فتشرف له الحجب الكثيفة ، وقد يتراعى له ذلك النور الذي « ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب

(٢١) العنكبوت - ٦٩ .

(٢٢) عوارف المعارف - ص ٤٦ و ٤٧ .

(٢٣) الأنعام - ١٢٥ .

(٢٤) المقصد من الضلال - ص ١٢٥ .

الترصد له ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » (٢٥) .

ولقد عبر الصوفية عن هذه النفحات بأنها علم القلوب ، ونسبوا إلى الله تعالى في بعض الكتب المتزلة قوله : (يا بني إسرائيل ، لا تقولوا العلم في السماء ، من ينزل به ، ولا في تخوم الأرض ، من يصعد به ، ولا من وراء البحار ، من يعبر فيأتى به ، العلم بمحلول في قلوبكم ، تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين ، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم ، حتى يغطيكم ، أو يغمركم » (٢٦) .

ويوضح الدكتور عبد الحليم محمود هذا العلم بقوله :

نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع في أبسط صورته وأعمها وأشملها هو الرؤيا ، فالقرآن يحدثنا في سورة يوسف عن عدة رؤى ، رؤيا يوسف ، ورؤيا السجينين ، ورؤيا الملك .

والرؤيا ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة ، ولكن قد قرب الله على خلقه بأن أعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه ، وقبل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، وبزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب - لأنكر ، وأقام البرهان على

(٢٥) المصدر السابق - ص ٧٦ .

(٢٦) عوارف المعارف - ص ٣٨ و ٣٩ .

استحاثته ، وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء - مع وجودها وحضورها - فبأن لا يدركها مع ركودها . أولى وأحق ، وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والملاحظة .

والقرآن غاصرٌ بهذا النمط من المعرفة الإلهية ، إنه غاصرٌ بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم ، أعني الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً في أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا موسى في البحث عنه جهده ، حتى وجده ، وأبدى رغبته في اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح : (إنك لن تستطيع معى صبرا) . وجرت أحداث لم يدرك سرها موسى إلا بعد أن قال له العبد الصالح : (هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) ، ذلك أن الرجل الصالح آتاه الله من لدنه علماً^(٢٧) .

هناك إذن طريق للمعرفة غير الحس والعقل ، وليقل الاستدلاليون ما يقولون ، فإن قدم الاستدلاليين خشية ، والقدم الخشبية واهنة . كما قال جلال الدين الرومى .

روى الشيخ أبو سعيد أبو الخير في كتابه « أسرار التوحيد » : أن ابن سينا التقي به في الخلوة لمدة ثلاثة أيام ، لا يخرجان إلا للصلاة الجمعة ، فلما انصرف ابن سينا سأله التلامذة : كيف وجدت الشيخ ؟ قال : كل ما أعرفه أنا يراه

(٢٧) المنقذ من الضلال - من ٣٣٠ - ٣٣٧ بتصرف .

هو ، وسأل المريدون الشيخ . كيف وجدت أبا علي - فأجاب : كل ما نراه نحن يعلمه هو (٢٨) .

وقال جلال الدين الرومي : فظهر نفسك من أوصاف نفسك حتى ترى ذاتك النقية الطاهرة ، فتجد في القلب علوم الأنبياء بغير كتاب ومعبد وأستاذ (٢٨) .

وقال الشيخ داود الكبير بن ماخلا - وكان أُميًا لا يقرأ ولا يكتب - من الأولياء من يتكلم من خزانة قلبه ، ومنهم من يتكلم من خزانة غيبه ، فالتكلم من خزانة قلبه محصور ، والتكلم من خزانة غيبه غير محصور . . . وقال : جلّت الحقيقة أن تكون البشرية محلا لتلقّيها ، ولكن إذا أراد أن يوصلها إليك ، انبسط شعاع سلطان شعاعها ، فهد في قلبك محلا لتلقّيها ، فيها وجدتها ، لا بك :

أعارتك طرفاً رآها به

فكان البصير بها طرفها (٢٩)

وقال فريد الدين العطار في فاتحة « تذكرة الأولياء » : إذا تجاوزت القرآن والأحاديث فليس ثم كلام يعلو على كلام مشايخ الطرق ، رحمة الله عليهم ، فكلامهم ثمرة للعمل والحال ، وليس نتيجة للحفظ والمقال وإنه من العيان لا من البيان ، ومن الإسرار لا من التكرار ، ومن العلم اللدني لا من العلم

(٢٨) تاريخ التصوف في الإسلام - ترجمة صادق نشأت - النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ ج ٢ هامش ص ٦٦٦ وص ٥٩٢ .

(٢٩) الطبقات الكبرى - ج ١ ص ١٩٠ .

الكسبي ، ومن الثورة والهيام ، لا من العمل والإقدام ، ومن عالم « أدبني ربي » ، لا من عالم « علمني أبي » ، فإنهم ورتة الأنبياء (٣٠) .

ولعل هذا يبرر قول ابن عربي عن كتاب « الفتوحات المكية » :
« وهذا الكتاب من ذلك الخط عندنا ، فوالله ما كتبت منه حرفاً إلا عن إملاء إلهي ، وإلقاء رباني ، أو نفث روحاني في روع كياني » (٣١) .
ويقرر هذا الإمام محمد عبده - ت سنة ١٩٠٥ م - في « رسالة التوحيد » بقوله :

« أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية ، من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال - حال الاتصال - في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم « المثال » لا تنكر عليهم ، لتحقيق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء - صلوات الله عليهم - ومن ذاق عرف ، ومن حرم الخوف » (٣٢) .
أوكما قال الإمام الغزالي : « من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة » (٣٣) .

• • •

(٣٠) تاريخ التصوف في الإسلام - ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣١) الفتوحات المكية - ج ٣ ص ٤٥٦ .

(٣٢) رسالة التوحيد - دار النصرية ١٩٦٩ - ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٣٣) إحياء علوم الدين - الشعب ج ١ ص ٣٤ .

والعرفة تأتي من وجهين : من عين الجود ، وبذل المجهود^(٢٤) . كما قال أبو سعيد الخراز - ت سنة ٢٨٦ هـ .
وبقدر البذل يكون العطاء .

نسب إلى أرسططاليس قوله : إني ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى ، وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلا في ذاتي ، خارجا عن جميع الأشياء ، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبا باهتا ، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف^(٢٥) .

ومن خلال تجربة الإمام الغزالي الخاصة بقرر أنه « من أول الطريقة بتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويقتبسون منهم فوائد . . ثم يترق الحال ، من مشاهدة الصور والأمثال . إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكن الاحتراز عنه . وعلى الجملة ، ينتهي الأمر إلى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد . وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ »^(٢٦) .

يقول الإمام الشعراني : « لعمرى ، إن عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق ، سبحانه ؟ ! »^(٢٧) .

ويمضى الإمام الغزالي في تصوير هذا الحال بقوله : « الذى لا يسته تلك

(٢٤) اللع - ص ٥٦ .

(٢٥) رسائل إخوان الصفا - دار بيروت سنة ١٩٥٧ ج ١ ص ١٣٧ .

(٢٦) المتخذ من الضلال - ص ١٢٩ و ٢٤٤ .

الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ، ولانسأل عن الخبر (٣٦)

لأنه صار إلى حال لا تنهض به لغة ، ولا يقوى عليه بيان .
يقول ابن تيمية - وقلمه أعنف الأقلام على هؤلاء القوم - : « إن أهل
الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة ، مطابقة لما في الصحيحين عن النبي -
ﷺ - أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد
فعمر » ، وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما
يقولون ، فإنها تجلي لهم أموراً صادقة ، وفي الترمذي - عن أبي سعيد عن النبي
ﷺ - أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ
قوله : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) ، وقال بعض الصحابة : أظنه والله
للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم ، وفي صحيح البخاري - عن أبي هريرة
عن النبي ﷺ - أنه قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ،
فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي
يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » . . . وفي رواية « فبى يسمع ، وبى يبصر ،
وبى يبطش ، وبى يمشى » . فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به . .
وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر ، رضى الله عنه . وقال
ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن
عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده .

وقال الله تعالى : (نور على نور) ، نور الإيمان على نور القرآن ، وقال تعالى : (ألمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ، وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن ، شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر مما أقر به حذاق النظر ، لما تكلّموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقليل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون نظر . . ومن متقدمي هؤلاء الحذاق كالكلبي المراس والغزالي وغيرهما ، ومن متأخريهم كالرازي والآمدي^(٣٧) . . ويزيد ابن تيمية الأمر وضوحاً بقوله : « فأحدهم من يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ، ويستغرق في ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت ، وأن نفسه قد فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله »^(٣٨) . . ولعله بهذا التعليل النفسى يلتقى بما نسب إلى أرسطو ، وهو ما يرتاح إليه العقل ، ولا يستطيع ابن قيم الجوزية إنكاره ، مع أنه - وهو تلميذ ابن تيمية - من أشد الغلاة في التهجم على الصوفية . .

يقول ابن قيم : « نعم ، قد يعذر في الفناء في الذات المجردة لقوة الوارد ، وضعف المحل عن شهود معاني الأسماء والصفات ، فتأمل هذا الموضع ، وأعطه حقه ، ولا يصدنك ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والدوق ، فإننا لا ننكره ، بل نقرب به ، ولكن الشأن في مرتبته^(٣٩) » .

(٣٧) مجموعة الرسائل الكبرى - ابن تيمية - مطبعة صبيح سنة ١٩٦٦ - ج ١ ص ٥١ - ٥٣ .

(٣٨) المصدر السابق - ج ١ ص ١٥١ .

(٣٩) مدارج السالكين - دار الكتاب العربي - بيروت سنة ١٩٧٢ - ج ١ ص ٤٧٩ .

ولأن التصوف ذوق وحال قد يرقى إلى حد المشاهدة - ورقى الحال لا يكون إلا بالمجاهدة ، والمجاهدة دُرية ومدارسة وذكر - اقتضى الأمر وجود شيخ يكون القدوة ، ويكون الرقيب ، ويكون المدرب .

« ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبون الله إلى عباده ، ويحبون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة » . . . وهذا الذى ذكره رسول الله - ﷺ - هو رتبة المشيخة . . . ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية . .

فأما وجه كون الشيخ يجب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى ، قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) . ووجه كونه يجب عباد الله تعالى إليه ، أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تركت النفس انجلت مرآة القلب ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمال التوحيد (٤٠) .

ولهذا كان من واجب المريد « ألا يدخل في صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره . . . وألا يكتم على الشيخ شيئاً من حاله ، ومواهب الحق عنده ، وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحى من كشفه يذكره إيماء وتعريضاً ، فإن المريد متى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً ، يصير على باطنه منه عقدة في الطريق ، وبالقول مع

(٤٠) عوارف المعارف - ص ٨٣ .

الشيخ تنحل العقدة وتزول . . وإذا كان كلامه مع الشيخ في أمر دينه أو أمر دنياه ، لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه ، حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ، ولسماع كلامه وقوله متفرغ . . عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس منا من لم يحلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » (٤١) .

وأول ما يؤمر به المريد - كما يقول سهل التستري - : « التبرّي من الحركات المذمومة ، ثم النقل إلى الحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف في الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاتة ، ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم يمين الله تعالى بعد هذه بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحلول والقوة ، وهذا مقام حملة العرش ، وليس بعده مقام » (٤٢) وكان من واجب الشيخ أن يتصرف في ملبوس المريد « كتصرفه في المطعوم ، وكتصرفه في صومه وإفطاره ، وكتصرفه في أمر دينه ، إلى ما يرى من المصلحة ، من دوام الذكر ، ودوام التنفّل في الصلاة ، ودوام التلاوة ، ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك ، فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومعاده بما يصلح له ، ولتنوع الاستعدادات تنوع مراتب الدعوة » (٤٣) . وعلى الشيخ أن ينتزه (عن مال المريد ، وخدمته ، والارتفاق من جانبه

(٤١) عوارف المعارف - ص ٤١١ - ٤١٣ بتصرف .

(٤٢) المصدر السابق - ص ٥٣٢ .

(٤٣) عوارف المعارف - ص ٩٩ .

بوجه من الوجوه ، وإذا رأى من بعض المريدين مكروهاً ، أو علم من حاله اعوجاجاً ، أو أحس منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب - ألا يصرح له بالمكروه الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة بجملاً ، فتحصل بذلك الفائدة للكل ، فهذا أقرب إلى المدارة ، وأكثر أثراً لتألف القلوب . . . وإذا رأى murid تقصيراً فى خدمة نديه إليها ، يحمل تقصيره ، ويعفو عنه ، ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين . . .

وعليه أن يحفظ أسرار المريدين فيما يكتشفون به ، ويمتنحون من أنواع المنح ، فسر murid لا يتعدى ربه وشيخه^(٤٤) .

وقد جرى أكثر المشايخ على عادة إلbas murid (خرقة) ، تكون مظهر ارتباط بين الشيخ والمريد ، وتحكيم من murid للشيخ فى نفسه ، وعلامة التفويض والتسليم ، ودخول murid فى حكم الشيخ ، « دخوله فى حكم الله وحكم رسوله ، وإحياء سنة الميابة مع رسول الله ﷺ . . .

حدث عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : أخبرنى أبى عن أبيه قال : بايعنا رسول الله - ﷺ - على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وألا تنازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيث كنا ، ولا نخاف فى الله لومة لائم . . . فى الخرقة معنى الميابة^(٤٥) .

ولمكان « الخرقة » من نفوس الصوفية أحدثوا لها تاريخاً يقول : إنه « قد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام - حين ألقى فى النار جرد من ثيابه ، وقذف فى النار عرياناً ، فأناه جبريل - عليه السلام - بقميص من حرير الجنة وألبسه

(٤٤) المصدر السابق - ص ٤١٩ و ٤٢٠ .

(٤٥) عوارف المعارف - ص ٩٥ .

إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ، فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب - عليه السلام - ذلك القميص في تعويد ، وجعله في عنق يوسف ، فكان لا يفارقه ، ولما ألقى في البئر عرباناً جاءه جبريل ، وكان عليه التعويد ، فأخرج القميص منه ، وألبسه إياه . . . ولما علم بما أصاب والده ، إذ ابيضت عيناه من الحزن ، « أمره جبريل أن أرسل بقميصك ، فإن فيه ربيع الجنة ، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صحَّ وعوفي . . فتكون الخرقه عند المريد الصادق متحملة إليه عرف الجنة »^(٤٦) . ومضى التاريخ بهذه « الخرقه » إلى « الخضر » صاحب الشخصية الأسطورية في حياة القوم ، فصار المشايخ يتلقون الخرقه عن الخضر ، والمريدون يتلقونها عن المشايخ .

ولعله من نافلة القول أن نعلق على هذه الظاهرة التي لا منطق لها ، ولا تلتقي مع احتياجات إنسانية ، أو فوق الإنسانية ، ونكتفي بقول ابن عري : « الخرقه عندنا إنما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلق ، ولهذا لا يوجد لباسها متصلاً برسول الله ﷺ ، ولكن توجد صحبة وأدباً ، وهو المعبر عنه بلباس التقوى ، فجرت عادة أصحاب الأحوال ، إذا رأوا أحداً من أصحابهم عنده نقص في أمر ما ، وأرادوا أن يكملوا له حاله ، يتحد به هذا الشيخ ، فإذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال ، ونزعه ، وأفرغه على الرجل الذي يريد تكلمة حاله ، فيسرى فيه ذلك الحال ، فيكمل له ذلك »^(٤٧)

(٤٦) المصدي السابق - ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٤٧) الفتوحات المكية - ج ١ ص ١٨٧ .

فالأمر لا يعدو « خلعة » تحمل طابعاً رمزياً . .
ومهما يكن من شيء في عالم الوهم والايهام متنع . .

• • •

و « الشطحات » الصوفية - فيما يرى القوم ، وفيما يقولون - لا تكاد تخرج
بهم عن المكانة الفكرية المتحررة المثقفة الطامعة في تاريخ الفكر الإنساني . .
يقول ماسينيون : إن رجال المعرفة الصوفية في الإسلام كانوا دائماً الهادج
التي تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار في الإسلام . .
ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال : إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعاً
من الجمال والكمال ، والإنسانية العالية ، والأخوة العالمية ، لا تجده في إسلام
الفقهاء أو المتكلمين » (٤٨) .

ولهذا - إذا ذكر « بعضهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي
الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن
مشكاته ، أو يقول : « الولي أفضل من النبي » (٤٩) - فلا ينبغي أن نعجل
بتكفيرهم ، كما فعل ابن تيمية (٤٩) ، لأنه « كيف يجوز أن نعتقد فيه الكفر
بحكاية نحكي عنه ، ولم نعرف إرادته فيما قال ، ولا نطلع على حاله في الوقت
الذي قال ؟ ! وهل يجوز لنا أن نحكم عليه فيما يبلغنا عنه إلا بعد أن يكون لنا
حال مثل حاله ، ووقت مثل وقته ، ووجد مثل وجده ؟ ! » (٥٠) .

« سئل شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى - عن حكم تكفير

(٤٨) مقدمة (اللمع) للمحقق - ص ٩ .

(٤٩) مجموعة الرسائل الكبرى - ج ١ ص ٢١ .

(٥٠) اللمع - ص ٤٧٣ .

غلاة المبتدعة وأهل الأهواء والمتفوهين بالكلام على الذات المقدس ، فقال
 رضى الله عنه : اعلم أيها السائل أن كل من خاف من الله - عز وجل -
 استعظم القول بالتكفير لمن يقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، إذ التكفير
 أمر هائل عظيم الخطر ، لأن من كفر شخصاً بعينه فكأنه أخبر أن عاقبته في
 الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين ، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال ، لا يمكن
 من نكاح مسلمة ، ولا يجرى عليه أحكام المسلمين ، لا في حياته ، ولا بعد
 مماته ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرئ
 مسلم ، وفي الحديث : « لأن يخطئ الإمام في العفو أحب إلي من أن يخطئ في
 العقوبة ، ثم إن تلك المسائل التي يفتى فيها بتكفير هؤلاء القوم في غاية الدقة
 والغموض ، لكثرة شبهها ، واختلاف قرائنها ، وتفاوت دواعيها ، والاستقصاء
 في معرفة الخطأ من سائر صنوف وجوهه ، والاطلاع على حقائق التأويل
 وشرائطها في أماكنها ، ومعرفة الألفاظ المحتملة للتأويل وغير المحتملة ، وذلك
 يستدعي معرفة جميع طرق أهل اللسان من سائر قبائل العرب ، في حقائقها
 وبجازاتها واستعاراتها ، ومعرفة دقائق التوحيد وغوامضه ، إلى غير ذلك ، مما هو
 متعذر جداً على أكابر علماء عصرنا ، فضلاً عن غيرهم ، وإذا كان الإنسان
 يعجز عن تحرير معتقده في عبارة فكيف يحجر اعتقاد غيره من عبارته ؟ ! فما بقي
 الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر ، واختاره ديناً ، وسجد الشهادتين ،
 وخرج عن دين الإسلام جملة ، وهذا نادر وقوعه ، فالأدب الوقوف عن
 تكفير أهل الأهواء والبدع ، والتسليم للقوم في كل شيء قالوه ، مما يخالف
 صريح النصوص » (٥١)

فإذا كان هذا الحكم الإسلامي النبيل مع أهل الأهواء والبدع ، فكيف بمن يتفانون في حب الله ؟ !

حقاً إننا نجد الصوفية يدعمون مذهبهم بكثير من الأحاديث الموضوعية ، والأقوال المختلفة ، منسوبة إلى هذا الحكيم أو ذاك العالم ، لكنها وإن كانت تحمل طابع الافتئات والتجنى ، فإننا لو نزعنا عنها غلاف الرواية ، ورأيناها تعبيراً عن وجهة نظر راويها ، لوجدناها تحمل طابع التفكير العميق ، القادر على الطيران إلى آفاق بعيدة رحبة .

ولهذا لا ينبغي أن نقع تحت تأثير ما أخذ ابن تيمية ، من أن « مما يروونه عنه - ﷺ - عن الله : « ما وسعني سماءي ولا أرضي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » ، هذا مذكور في الإسرائيليات ، ليس له سند معروف عن النبي ﷺ . . . وما يروونه عنه أيضاً : « كنت كثرًا لا أعرف ، فأحييت أن أعرف ، فخلقت خلقاً ، فعرفتهم بي ، فعرفوني » . لا يعرف له إسناده صحيح ولا ضعيف » . . إلخ (٥٢) . .

ولا ينبغي أن نقرنا قول أبي يزيد البسطامي - ت سنة ٢٦٦هـ - : (أشرفت على ميدان اللبسة ، فازلت أظرفيه عشرين ، حتى صرت من ليس في ليس بليس ، ثم أشرفت على التضيع ، وهو ميدان التوحيد ، فلم أزل أظرف بليس في التضيع ، حتى ضعت في الضياع ضياعاً ، وضعت فضعت عن التضيع بليس في ليس في ضياعه التضيع ، ثم أشرفت على التوحيد في غيبوبة الخلق عن العارف ، وغيبوبة العارف عن

الخلق» (٥٣) . . فهذا لون من « الدلال » الأدبي ، و « التلاعب » اللفظي من رجل عرفت قدرته الرصينة على الصياغة الدقيقة ، وهو لا يخرج في هذا ، وفي قوله : « زبني بوحداثيتك ، وأبسنى أنانيتك » ، وادفعني إلى أحديتك ، حتى إذا رآني خلقتك قالوا : رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا » (٥٣) - عن إرادة فناء المخلوق في الخالق ، الأولى في شكل تجريبي ، والثانية في صورة دعاء ، وليس من السهل الغلو في الحكم على من هذا حاله .
فإذا أردنا الوقوف عند كل لفظ لنعرف مآثاه ومغزاه ، فما أظننا إلا صائرين « من ليس في ليس بليس » .

ومادام القوم يرمزون ويستوحون ، ويغلفون ألفاظهم بأغلفة شفافاة ألآفة حيناً ، كشيعة باهتة أحياناً أخرى ، فإن ههنا - نحن القراء - أن نقف عند حد الاستيحاء ، مأخوذين بالجور البياي الذي يتفنون أنسامه ، ويضربون في آفاقه بأجنحتهم الرجبية القوية .

ولعل من أخطر ما يجبهنا من كتابات بعضهم استخدام عبارات « التثليث » ، فيما يتناولون من علاقة الناسوت باللاهوت .

ودون شك كان للثقافة المسيحية دور في هذا ، وبخاصة أن المجتمع الإسلامي اتسع فيما اتسع لمجتمعات مسيحية ، والحضارة الإسلامية استمدت فيما استمدت روافد من ثقافات مسيحية ، والصراع الإسلامي واجه فيما واجه تحديات مسيحية ، فإذا أخذنا في الاعتبار أن الفكر الصوفي فكر لا تخضعه القيود ، وأنه ينهل المعرفة حيث وجدها ، ويستعين الرمز متى استراح إليه - فإن من واجبتنا أن نتروى طويلاً طويلاً ، وأن نتردد أكثر فأكثر ، قبل أن نجرؤ على

قول قاطع في هؤلاء القوم .

يقول ابن عربي : « اعلم أن الأحد لا يكون عنه شيء البتة ، وأن أول الأعداد إنما هو الاثنان ، ولا يكون عن الاثنين شيء أصلاً ما لم يكن ثالث يزوجها ، ويربط بعضها ، ويكون الجامع لها ، فحينئذ يتكون عنها ما يتكون بحسب ما يكون هذان الاثنان عليه ، إما أن يكون من الأسماء الإلهية ، وإما من الأكوان المعنوية أو المحسوسة ، أي شيء كان فلا بد أن يكون الأمر على ما ذكرنا ، وهذا هو حكم الاسم الفرد ، فالثلاثة أول الأفراد ، وعن هذا الاسم ظهر ما ظهر من أعيان الممكنات ، فما وجد ممكن من واحد ، وإنما وجد من جمع ، وأقل الجمع ثلاثة ، وهو الفرد ، فافتقر كل ممكن إلى الاسم الفرد ، ثم إنه لما كان الاسم الفرد وثلاث الحكم أعطى في الممكن الذي يوجد : ثلاثة أمور لابد أن يفيدها ، وحينئذ يوجد ، ولما كانت الغاية في المجموع : الثلاثة التي هي أول الأفراد ، وهو أقل الجمع ، وحصل بها المقصود والغنى عن إضافة رابع إليها ، كان غاية قوة المشرك : الثلاثة ، فقال : « إن الله تعالى ثالث ثلاثة » ولم يزد على ذلك ^(٥٤) .

ولما كان من خصائص أسلوب ابن عربي أن الفكرة لا تتضح في قلمه بسهولة ، لأنها تعتمد على سرعة اللمح ، أو لسيولة قلمه ، أو لوقوعه تحت مؤثر اجتماعي ، فإن علينا أن نتبع فكرته في موضع آخر ، إذ يقول : « إن الوجود الأول ، وإن كان واحد العين ، من حيث ذاته ، فإن له حكم نسبة إلى ما ظهر من العالم عنه ، فهو ذات وجودية ونسبة ، فهذا أصل شفعية العالم . . . ولا بد من رابط معقول بين الذات والنسبة ، حتى تقبل الذات هذه النسبة ، فظهرت

(٥٤) الفتوحات ج ٣ ص ١٦٦ عن بلاطيس ص ٢٦٧ .

الفردية بمقولية الرابط ، فكانت الثلاثة أول الأفراد ، ولا رابع في الأصل ،
فالثلاثة أول الأفراد في العدد إلى مالا يتناهى » (٥٥) .

لم أكد أفهم عن التثليث إلا « الذات والنسبة والرابط » ، وهذه معان
لا تتضح إلا بقوله : « جاء الكشف النبوى والإخبار الإلهى بقوله عن ذات
تسمى إلهًا ، إذا أراد شيئًا فهذان أمران ، إن قال له كن ، فهذا أمر ثالث ،
والثلاثة أول الأفراد ، فظهر التكوين عن الفرد ، لا عن الأحد » (٥٦) .

ويزداد هذا وضوحًا بقول الدكتور عبد الرحمن بدوى : « أول الأعداد
الفردية هو الثلاثة لا الواحد ، لأن الواحد ليس بعدد ، وإنما هو أصل
الأعداد ، وما زاد على الثلاثة من الأعداد الفردية فهو متفرع عنها . . وعلى
أساس هذه الفكرة العددية بنى ابن عربى فكرة ميتافيزيقية موازية لها ،
لا فيما يذكر عن « محمد » باعتباره مظهرًا للاسم الإلهى « الفرد » ، بل فى كل ما
يقوله عن عملية الخلق التى يرجعها إلى الفردية الثلاثية ، فأول صورة تعينت فيها
الذات الإلهية كانت ثلاثية ، لأن اليقين كان فى صورة العلم ، حيث العلم والعالم
والمعلوم حقيقة واحدة ، وقد كان هذا التعين الأول تعينًا حيًا أيضًا ، حيث
الحب والمحبة والمحبوب حقيقة واحدة ، وإلى هذا أشار ابن عربى بقوله :

تثلث محبوبى وقد كان واحدًا

كما صيروا الأقسام بالذات أقنا (٥٧)

(٥٥) الفتوحات ج ٣ ص ٦٠٣ عن بلاتيوس ص ٢٦٧ .

(٥٦) الفتوحات ج ٤ ص ٨٩ .

(٥٧) ابن عربى - آسبن بلاتيوس - ج ٢ ص ٣٢٢ .

فابن عربي - من خلال تفسير الدكتور عبد الرحمن بدوي - واقع تحت تأثير ثقافة وافدة ، أكثر إخوان الصفاء - في المجلد الأول من رسائلهم - من الأخذ بها ، وهي في قلم ابن عربي - وفي قلم إخوان الصفا - غير ذات غناء ، لا نحس أنها تخرج عن « التظاهر بالمعرفة » ، ولا تمثل هضماً واستيعاباً ، بحيث تصبح تعبيراً عن رأى أو حاجة نفسية ، فضلاً عن فلسفة ما . . .
ولهذا نجد ابن عربي يقول في موضع آخر :

« وأما أهل التثليث فيرجى لهم التخلص ، لما في التثليث من الفردية ، لأن الفرد من نعوت الواحد ، فهم موحدون توحيد تركيب ، فيرجى أن تعمهم الرحمة المركبة ، ولهذا سمّوا كفاراً ، لأنهم ستروا الثاني بالثالث ، فصار الثاني بالثالث بين الواحد والثالث كالبرزخ ، فرموا لحق أهل التثليث بالموحدين في حضرة الفردانية ، لا في حضرة الوجدانية » (٥٨)

بينما يقول في موضع آخر :

« عليك بالهجرة ، ولا تقم بين أظهر الكفار ، فإن ذلك إهانة دين الإسلام ، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله ، فإن الله ما أمر بالقتال إلا لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . . . واعلم أن المقيم بين أظهر الكفار - مع تمكنه من الخروج من بين ظهرانيهم - لاحظ له من الإسلام . . . فالزائرون اليوم بيت المقدس ، والمقيمون فيه من المسلمين ، هم الذين قال الله فيهم : (ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٥٩) .
فبالنظرة العامة للقولين نجد أن الرجل لا يصدر عن معتقد ، بل لا يصدر

(٥٨) الفتوحات - ج ٣ ص ٢٢٨ عن بلاتيوس ص ٢٦٧ .

(٥٩) الفتوحات - ج ٤ ص ٥٩٦ و ٦٠١ و ٧١٦ و ٧١٨ عن بلاتيوس ص ٣٧ .

عن رأى ثابت ، فهو فى القول الأول قال : « تعمهم الرحمة المركبة » ، فى حين قال بعد ذلك : ربما لحقوا بالموحدين ، و فرق بين التثليث والتوحيد ، فى حين أن الثواب واحد تقريباً . . ومع هذا فقولہ لا ينطبق على حقيقة معتقد « المسيحية » - كما سيأتى - وهو فى القول الثانى ، مع أنه معاصر الحرب الصليبية ، داع إلى الخيانة ، وتسليم الأرض لأعدائها المعتصبين . .

ومن ثم لا ينبغي أن يعد ابن عربى نموذجاً للتزاوج بين الإسلام والمسيحية ، ولا يستدل بقوله فى هذا المجال ، كما يفعل آمين بلاثيوس ، المشرق الإيبانى ، ومع أن الصوفية تأثروا فعلاً بالفكر المسيحى وغيره - كما سنبين بعد - فإن الأمر لا يصل إلى حد قول بلاثيوس :

« لم يكن فى الإسلام شىء شبيه بما فى المسيحية من عقيدة التجسيد ، أى تأنس الله - « صيرورته إنساناً » - وهو مما يمهّد للتصوف تماماً ، ففى المسيحية أن المسيح إله وإنسان فى وقت واحد ، وفيه يتحقق الاتحاد الأقنومى « الشخصى » ، وهو نموذج العلاقة الوثيقة بين الإنسان والألوهية ، فأتى صوفى عاش فى بغداد فى القرن العاشر الميلادى « الرابع الهجرى » ، وهو الحلّاج ، وخطا هذه الخطوة الجديدة فى التقريب بين الإسلام والمسيحية ، فعبارة « أنا الحق » تتحقق تماماً فى المسيح ، وتتحقق صوفياً . لدى أولئك الذين يقتدون به فى حياته القائمة على المحبة والفداء ، لكن ، كما أنه فى شخص المسيح يتحد اللاهوت بالناسوت ، دون أن يختلطاً ، فكذلك عند الحلّاج الاتحاد أو « الحلول » يتميز فيه أيضاً شخصية النفس وذات الله ، ولا تختلطان ، وعبارته « أنا الحق » يبدو أنها لا تدل إذن على أكثر مما تدل عليه عبارة القديس

بولس : « المسيح يحيا في » ، ومن هنا يرى أن مذهب الحلاج ليس حلولا
ووحدة وجود ، بل هو من هذه الناحية أشبه بالمسيحية .
غير أن الصوفية المتأخرين أكدوا وجهة النظر المحايثة ، أكثر فأكثر ،
وتصوروا الاتحاد « الوصول » على أنه إفناء الشخصية الإنسانية في الله ،
وابن عربي من بينهم هو الذي فسر عبارة الحلاج المشهورة تفسيراً حلولياً ، فالله
والإنسان متميزان الواحد عن الآخر عقلياً ومنطقياً فحسب ، كمظهرين لجوهر
الواحد الأحد ، والوجدان الصوفي هو الذي يكشف للإنسان عن هذه الهوية
الفعلية بين الإنسان والله ، وهنا تلتقي الميتافيزيقا الأفلاطونية والعرفانية
« الغنوصية » عند ابن عربي ، وقد رأينا ذلك في عقيدته الدينية أن الإنسان
الكامل الذي فيه تتحقق هذه الهوية باستمرار ، هو النور الإلهي المتجسد في آدم ،
وبعده في سائر الأنبياء ، حتى النبي محمد - ﷺ ، وكان آدم أول تجلٍ
موضوعي للطبيعة الإلهية ، وقبل وجوده الزماني على الأرض ، وجد سابقاً
وجوداً سماوياً أزلياً أبدياً ، على مثال « النوس » - العقل - في الأفلاطونية
المحدثه ، و « اللاغوس » عند الغنوصيين ، ومحمد - ﷺ - وهو التجلي
« التجسد » الأخير لهذا النور ، هو الإنسان الكامل الوسيط للطف الإلهي للناس
كافة ، ولأولياء بخاصة .

وهذا التصوير للنبي محمد - ﷺ - ترى فيه الملامح المميزة لتصوير بولس
للمسيح ، الوجود السابق منذ الأزل ، العلاقة مع آدم ، التجلي « التجسد »
دور الوسيط ، ليس فقط بوصفه المثل الأعلى للكمال الواجب الاقتداء به ، بل
أيضاً ، ينبوعاً للطف والحياة الصوفية ، وبواسطة النبي يصل العبد إلى مقام
الوصول والاتحاد ، ويدخل في السلسلة السرمدية لتجليات النور الإلهي ،

ويصبح إنساناً كاملاً مثل آدم وعيسى ومحمد ، والاتحاد ينظر إليه إذن عند ابن عري على أنه بمعنى المحايثة التامة ، وعلى الرغم من كل التحفظات ، فإن أساس فكرة حلولى فى التصوف ، كما كان فى العقائد^(٦٠) .

برغم المنطق الهادئ والعبارة الدقيقة التى تستقل بالمعتقد المسيحى نقلة نرجو أن تتم - فإن عبارة الحلاج وابن عري لا تخرج عن المعنى الذى عبر عنه بعض الحكماء بقوله : « لا يبلغ المتحابان حقيقة المحبة ، حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا »^(٦١) .

والحلاج يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا^(٦٢)

فالأمر لا يعدو مجرد استشراف نفسى ، بعيداً عن كل القيود المادية ، ويكثر هذا بين شعراء الغزل ، وبخاصة العذريين ، لكن كأنما أراد بلاثيوس أن يبرر الموقف المسيحى بمشاركة إسلامية ، وادعى أن العقيدة المسيحى تمثل فى (اتحاد اللاهوت بالناسوت دون أن يختلطا » ، مع أن المعتقد المسيحى تحول عن

(٦٠) ابن عري - ص ٢٥٧ و ٢٥٨ .

(٦١) اللع - ص ٤٦٣ .

(٦٢) ديوان الحلاج - بنناد - مطبعة المعارف سنة ١٩٧٤ - ص ٥٥ .

قول عيسى عليه السلام : « هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الأب قد أرسلني » [يوحنا - ٥] - إلى قول بولس : « الكل به وله قد خلق » - [رسالة بولس إلى أهل كورنثوس - ١] - وإلى قول يوحنا اللاهوتي : « أنا هو الأول والآخر ، والحى ، وكنت ميتاً ، وهأنذا حى إلى أبد الآبدين ، آمين ، ولى مفاتيح الهاوية والموت » - [رؤيا يوحنا] - وإلى قرار مجمع الثلاثانة والثمانية عشر ، زمن قسطنطين الملك : « نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، ووبرب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شيء ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب على عهد ييلاطس النبطى » (٦٣) .

فإذا كانت الصوفية اجتهدت فى تخليص الإنسان من المادة ، وتطهير روحه من أدران الجسد ، فى سبيل تخليصه من الحجب الكثيفة التى تحول دون تنور المعرفة الكاملة لله - فإن المسيحية انتكست بالمعرفة ، بحيث أضفت على الإله صفة البشرية ، ومكنت منه أعداءه فى الأرض ، ثم تحولت باللفز والأسطورة إلى أن « الآب إله ، والابن إله ، والروح القدس إله ، ولكنهم ليسوا ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، ولا غرابة فى هذا » ، فإنه « مع كونهم ثلاثتهم ذوى طبيعة واحدة ، ترى كلا منهم منفرداً عن الآخر ، كاملاً بذاته ، يتكلم باسم ، فيقول

(٦٣) ابن تيمية - الجواب الصحيح - مطبعة المدنى - ج ١ ص ١١٨ .

الأب : أنا خلقت العالم ، ويقول الابن : أنا فديت العالم ، ويقول الروح القدس : أنا قدست العالم « (٦٤) .

• • •

ولا شك في أن التصوف تخلى في رحلته الطويلة عن أهدافه السامية ، وأصبح مظهرًا للدجل والشعوذة ، أو كما يقول أبو الحسن النورى : « كانت المراقع غطاء على الدر ، فصارت اليوم مزابل على الجيف » (٦٥) . .

فإذا كان النورى من رجال القرن الثالث : فكيف بعد ألف عام ؟ !
روى عن سفيان الثورى ، أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرباء .

وأبو هاشم هذا « أسس في أواخر القرن الثانى للهجرة - في موضع الرحلة من بلاد فلسطين - صومعة للصوفية ، إلا أن الحياة في الصوامع كانت نادرة في هذا العهد : وكان أغلب الزهاد في هذا العصر متجولين ، يتنقلون من مكان إلى مكان ، منفردين أو جماعات ، وكان بعضهم يأكل خبزه من كد يمينه » (٦٦) .
ولم يكن أبو هاشم أول من مضى في هذا الطريق ، فقد « ذكر في الكتاب الذى جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحق بن يسار ، وعن غيره : أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات ، حتى لا يطوف بالبيت أحد ،

(٦٤) القس منسى يوحنا - شمس البر - مطبعة الأمانة - ص ٨٣ .

(٦٥) الرسالة القشيرية - ج ١ ص ١١٢ وينبه الجوزى إلى سفيان الثورى - تلبس إبليس

ص ١٨٤ .

(٦٦) تاريخ التصوف في الإسلام - ج ١ ص ٣٦ .

وكان يحىء من بلد بعيد رجل صوفى ، فيطوف بالبيت وينصرف ، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم ، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح .

والحسن البصرى الذى أدرك جماعة من أصحاب رسول الله - ﷺ - « قد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيًا فى الطواف ، فأعطيته شيئًا فلم يأخذه ، وقال : معى أربعة دوانيق ، فيكفينى ما معى » (٦٧) .
وتاريخ التصوف يربط مفهوم التصوف بأهل الصفة تارة ، وبالرسول - ﷺ - مثلاً وقدوة ، تارة .

بل إن هذا التاريخ ينسب إلى عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - أنه أراد هجر الزوجة والأولاد فى سبيل التفرغ لله ، بل قيل : إنه أراد أن يختصى تخلصًا من عوامل الشهوة ، مع أن الاختصاص كان من أعمال رهبان المسيحية ، كما قال الجاحظ فى كتابه الحيوان .

وقيل : إن عثمان بن مظعون قال للنبي عليه الصلاة والسلام : نفسى تحببى أن أترك اللحم ، فقال الرسول : مهلا ، فإنى أحبه ، ولو أصبته لأكلته (٦٨) .
والرغبة فى الحرمان تقرًا إلى الله مشهورة بما جاء فى الصحيح : « أن نفرًا من أصحاب النبي - ﷺ - سألوا عن عبادته فى السر ، فكأنهم تقالوها ، فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا أنام على فراش ، فبلغ النبي - ﷺ - مقالهم ، فخطب ، وقال : ما بال أقوام يقول أحدهم : أما أنا فلا آكل

(٦٧) اللع - ص ٤٢ - ٤٣ .

(٦٨) تاريخ التصوف فى الإسلام - ج ١ ص ٩٤ - ٩٧ .

اللحم ، ويقول الآخر : أما أنا فلا أتزوج ، ويقول الآخر : أما أنا فلا أنام في فراش ؟ لكنني أتزوج النساء ، وأكل اللحم ، وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، فن رغب عن سنتي فليس مني^(٦٩) .

تم هذا في وقت كان الرسول والصحابة في شغل بالدعوة وتأمينها ، فلما فتح الله على المسلمين بالفتوحات ، انغمست طائفة في الملذات ، وانزوت طائفة تحمى أمر دينها من هذا الطارئ الجديد ، وتبالغ في حمايته . فلما كانت الفتنة الإسلامية ، والحروب الداخلية الموحشة ، وانتشار المظالم ، والانهاك في أمور الدنيا ، قويت العوامل الداعية إلى العزلة . وكرد فعل للانغماس في الشهوات ، اندفعت طائفة في ترويض النفوس على الحرمان . وباحتكاك المجتمع الإسلامي بالمجتمعات غير الإسلامية ، وبالثقافات الوافدة من حضارات أخرى ، أخذت أفكار وعادات تتسرب إلى المجتمع الإسلامي ، وكل يكتب على وفق استعدادده وهواه .

ومن خلال الصراع بين الفرق الإسلامية ، صارت كل فرقة تعيد حساباتها ، وتجدد وجودها ، وتمتد هذا الوجود بكل ما تحسه من عوامل حياتها .

فما كاد القرن الثالث الهجري ينتهي حتى كان للتصوف أركان ومبادئ ، واتخذ له طريقاً ومنهاجاً . .

وصار هناك تنظيم للجماعة يقوم على « أولئك الذين يعدون من أهل الحل والعقد ، وهم القادة في ساحة الله جل جلاله ، وعددهم ثلثائة ، وهم يسمون بالأخيار ، وهناك أربعون آخرون يسمون بالأبدال ، وسبعة آخرون يدعون

(٦٩) مدارج السالكين - ج ١ ص ١٧٤ .

بالأبرار ، وأربعة يسمون بالأوتاد وثلاثة يسمون بالنقباء ، وواحد ينعت بالقطب والغوث ، وهؤلاء الجماعة يعرف بعضهم بعضاً ، وفي الأمور يحتاج أحدهم إلى الإذن من الآخر» (٧٠) .

وكان مرجع عقائد الصوفية حتى القرن السادس إلى القرآن والأحاديث أو المكاشفة والشهود والمشايخ والأقطاب ، وبعد ذلك صار للفلسفة وعلم الكلام نفوذ كلي ، ووفدت على الكعب الصوفية مئات الاصطلاحات للحكماء والمتكلمين ، وأصبحت أبحاث كثير من الحكماء موضع نظر أهل السلوك والتصوف ، من قبيل مسألة حقيقة الله والعالم ، والبحث في ذات الله وصفاته ، وموضوع المعرفة الواقعية ، ومسألة علة الخلق وسر الخليفة ، وريط الحادث بالقديم ، ومسألة وحدة الوجود على منهج البحث الفلسفي ، وكذلك بحث الروح والبدن والنفس والعقل ، والعالم الصغير والعالم الكبير ، والأعمال والأفعال ، والجبر والاختيار ، وتقسيم العوامل ، وأمثال ذلك (٧١) . ولم يقتصر الأمر على الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام ، فقد يكون وسيلة للدفاع عن الطريقة ومعتقداتها ونظمها ، وبخاصة أن الفرق الأخرى كانت تتخذ من الجدل مركباً إلى غاياتها .

لكن الأمر تحول عن مجرد الدفاع إلى تدعيم الطريقة بمفاهيم من خارج الشريعة الإسلامية . . فإذا قلنا عن الثقافة المسيحية . وبخاصة تلك التي اتخذت لها قواعد في الرها وجندينسابور ، فضلاً عن أماكن مختلفة في فلسطين . وإذا عرفنا أن الثقافة المسيحية مزيج من الأفلاطونية الحديثة التي جمعت بين الفكر

(٧٠) تاريخ التصوف في الإسلام - ج ١ ص ٣٣٧ .

(٧١) المصدر السابق - ج ٢ ص ٧٦٣ .

اليوناني والفكر اليهودي والفكر المسيحي ، ومن الغنوصية المعرفية الأدرية التي جمعت هي الأخرى بين الفكر اليوناني واليهودي والصائبي والمسيحي - إذا عرفنا ذلك أدركنا كيف أن فكرة « هناك سبعون ألف حجاب كامل تحول بين العالم المادى والحقيقة المطلقة » ، قد صيغت - وهي فكرة غنوصية - في حديث نسب إلى رسول الله ﷺ : « إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة » . . . وجرى الصوفية على أساس أن الإنسان سجين في جسده ، وهذا الجسد هو أكبر حجاب بينه وبين الله ، وعلى ذلك يكون اهتمام الصوفى بنجاة ذلك الجوهر السماوى من سجن الجسد ، وإزالة السبعين ألف حجاب ، بحيث يوحده بالحقيقة المطلقة (٧٢) .

ومرد هذه الفكرة إلى الأفلاطونية الحديثة كذلك ، تلك التى تدعو إلى « التسامى » على أساس أن النفوس البشرية لها مبدأ سماوى ، ولكنها هابطة في الأجسام ، وهذا الهبوط هو عقاب غرورها ، وهو عقاب مؤقت ، ولو بذلت النفس الهمة ، ووجهت أفعالها نحو الخير ، لأصبح من الممكن أن تنال المشاهدة الإلهية ، وغاية الكمال والمطلوب هو العود إلى المبدأ ، أو حصول التمتع الأبدى . . . وطريقة ذلك تطهير النفس السفلية عن طريق التجرد من الشهوات الجثمانية ، والميول الحسية ، وممارسة الفضائل الأربع ، وهى العفة والعدل والشجاعة والحكمة (٧٣) .

وينبغى ملاحظة أن من رجال المدرسة الأفلاطونية الذين نشأوا في « الرها » ، ثم رحل إلى بيت المقدس « اسطفن - بارسودايلي سورى » الذى كان

(٧٢) تاريخ التصوف في الإسلام - ج ١ ص ٢١٨ و ٢١٩ .

(٧٣) تاريخ التصوف في الإسلام - ج ١ ص ١٤٢ .

يرى أن « العالم كله بالنسبة إلى الله في حكم الأشعة بالنسبة إلى الشمس ، كل الموجودات صادرة عن الله ، وهى تعود إليه » أى وحدة الوجود ، ولهذا حكم بتكفيره . . ومن مقولاته أن عقل الإنسان مستعد للحصول على ماله من الكمال ، بعد أن يمر بالمقامات والأحوال المختلفة ، حتى يتحد بهذا الوجود المحض ، ويفنى في النهاية في ذلك الوجود ، ويصبح هو نفسه (٧٤) .

وينبغى كذلك ملاحظة أن معظم أقطاب التصوف من تلك الأماكن التى انتشرت فيها هذه الأفكار . . هذا إلى ما هو معروف عن ذى النون المصرى الذى كان يتردد على الأديرة ، فضلا عن نشأته في بيئة تروج فيها الأفكار المسيحية .

ولهذا نجد هذه الأفكار - منذ القرن الثالث الهجرى - يلهج بها كثير من المتصوفة ، ولكن في صورة هامسة ، ما تلبث أن تستعلن شيئا فشيئا ، حتى تصبح معتقداً أو شعاراً للكمال الإنسانى .

قال أبو يزيد البسطامى : كان الحق تعالى مرآة لى ثلاثين سنة ، وأصبحت الآن مرآة نفسى ، أى لم أبق كما كنت قبل هذا ، فإن قولى « أنا الحق » شرك ، فأنا ما فنيته أنا ، فالله تعالى مرآة ذاته ، فإذا قلت الآن إني مرآة نفسى فذلك حق ، إذ إنه يتكلم بلسانى ، وإني غير موجود حينئذ . .

.. صرت حدادا لنفسى اثني عشر عاماً ، أضعتها في كور الرياضة ، وأصهرها بنار المجاهدة ، وأجعلها على سندان المذمة ، وأطرقها بمطرقة الملامة ، إلى أن جعلت من نفسى مرآة لنفسى طيلة خمس سنين ، وكنت أجلو تلك المرآة بأنواع الطاعات والعبادات ، ثم نظرت بعين الاعتبار فيها سنة ، ثم نظرت إلى

(٧٤) المصدر السابق - ج ١ ص ١١٩ .

باطني بعين الغرور والخيلاء ، فوجدت زنارًا من الاعتماد على الطاعة والإعجاب بالعمل ، وجاهدت نفسي خمس سنوات أخرى ، حتى انقطع ذلك الزنار ، وحصلت على إسلام جديد .

وقالوا لأبي يزيد : متى يعلم المرء أنه بلغ حقيقة المعرفة ؟ قال : حينما يفنى تحت علم الحق ، ويصبح باقياً على بساط الحق من غير نفس ولا خلق ، فحينئذ هو فان باق ، وباق فان ، وميت حى ، وحى ميت ، ومحجوب مكشوف ، ومكشوف محجوب . .

ويرى الجنيد : أن السبيل إلى الفناء هو إزالة الحجب . .

قالوا له : إنك تقول : الحجب ثلاثة : حجاب النفس ، وحجاب الخلق ، وحجاب الدنيا ، فقال : إن هذه الحجب الثلاثة عامة ، وهناك ثلاثة حجب خاصة ، هى : مشهد الطاعة ، ومشهد الثواب ، ومشهد الكرامة . . وقال أبو سعيد الخراز : إذا أناب العبد إلى الله ، وتعلق بالله ، وسكن في قرب الله ، نسي نفسه ، ونسى ما سوى الله ، فإذا قيل له : من أنت ، وماذا تريد ؟ لا يكون له جواب أفضل من أن يقول : الله . . وقال الحلاج :

قد وسم الحب منه قلبي

بميسم الشوق أى وسم

وغاب عني شهود ذاتي

بالقرب ، حتى نسيت اسمي

وقال أيضاً :

في نحو اسمي ورسم جسمي

سألت عني فقلت : أنت

أسارٍ سري إليك حتى

فنيث عني ودمت أنت

يقول عبد الرحمن الجامي : وتحقيق ذلك على كل من يفتح هذا الباب في الحقيقة ، عن طريق السلوك أو الجذبة ، أن يجلس في الخلوة غائباً عن وجود نفسه ، متخلياً عن ذاته وصفاته ، يرى نفسه في مرآة حبيبه ، وحبيبه في مرآة نفسه ، ويقرأ في مرآة نفسه أحوال حبيبه وصفاته . فالسير إلى مقام الفناء في الله هو الفتح ليس إلا ، إذ « لا هجرة بعد الفتح »^(٧٥).

ولم يقف التأثير عند مفهوم « التسامي والفناء » ، بل اتسع لما يسمى بالحقيقة الواحدة ، التي يلتقي عندها الجميع دون تمييز ، فابن عربي يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي

إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

(٧٥) الأمثلة من (تاريخ التصوف في الإسلام) من أماكن متعددة ، ما عدا مثالي الحلاج لمن

ديوانه .

لكنه بعد أن (عرف) صار كما يقول :

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

هذا الحب هو حب « الحقيقة الواحدة » ، التى أكثر من القول فيها صوفية فارس ، إذ يقول جلال الدين الرومى :

كانت الأعيان كلها زجاجات تختلف ألوانها ، انعكست عليها أشعة شمس الوجود ، فكل زجاجة كانت حمراء أو صفراء أو زرقاء ، ظهرت عليها أشعة الشمس بلونها .

ويقول ما خلاصته :

التقى فارس وتركى ورومى ، وأعطوا رجلاً درهماً ليشتري عبناً ، فنطق كل منهم مراده بلغته ، ولما لم يكن أحدهم يعلم لغة الآخر اختلفوا ، مع أن المطلوب واحد . .

ويقول : ترى العين أصل الشئ إذا كانت سليمة ، وترى الشئ اثنين إذا كانت حواء .

إذا كانت الطرق مختلفة فإن الغرض واحد ، ألا ترى أن الطرق إلى الكعبة مختلفة ؟ !

إن غصن الورد أينما ينبت فهو ورد . .

كل من كان له باب مفتوح فى صدره يرى كل ذرة شمساً .

ويقول فريد الدين العطار :

إننى أراك ذرة على ذرة فى الطريق ، وأراك العالم ، فثم وجه الله .
إذا تموج الكونان بمائة ألف موجة ، فالجمله كلها واحدة ، ولكنها جاءت
مائة ألف مرة (٧٦) .

وإلى هنا يمكن أن نقول : إن الأمر ليس ذا خطر ، لقد ثقفوا وهضموا ،
وصارت الثقافة عصارة أبدانهم ، فانتجوا شيئاً خاصاً بهم ، وهذا الشيء
لا يخرج عن كونه جذاً فى تطهير النفوس ، وشوقاً إلى مرضاة الله ، وحجاً لذات
المنعم العظيم ، وتقديراً لأثره فى كل شيء ، وتطلعاً إلى أن تسع رحمته كل
شيء ، وترفعاً عن كل مظاهر الحياة الدنيا ، حتى عن تباین صورها التعبدية .
لكن أن يصل الأمر إلى حد أن تصبح الشريعة وسيلة إلى غاية ، فإذا
تحققت الغاية بطلت الوسيلة ، فهذا منطق غريب كل الغرابة عن الدين ،
ولا دليل عليه من كتاب أو سنة أو سلوك المسلمين الأول ، ولا مجال فيه
لاجتهاد ، لأنه ليس نابئاً من الشريعة ، بل خارجاً عليها ، مصادراً لها .
ولقد بدأت هذه الدعوى بما يشبه الحرص على الكمال . . يقول أبو يزيد
البيضاوى :

ما لحت فى الصلاة إلا قيامكم ، وما وجدت فى الصوم إلا جوعكم ،
وكلها عندى إنما هو من فضله ، وليس هو من عملى .

ويروى جلال الدين الرومى قصة ملخصها :

كان راعى الأغنام يتاجى الله بقوله : أين أنت حتى أصير عبداً لك
فأنخسف نعلك ، وأمسط شعرك ، وإذا دهاك مرض أحمل هك ، كما أحمل
هم نفسى ، وإذا عرفت دارك أحمل إليك السمن واللبن كل صباح ومساء ؟ !

(٧٦) الأمثلة من (تاريخ التصوف فى الإسلام) من أماكن متعددة .

فنهزه موسى عليه السلام ، وقال : ويحك ، لقد صرت جريئاً ، وأصبحت كافراً ، قبل أن تكون مسلماً ، فإن لم تكف عن هذا الكلام فسنزل ناراً ونحرق الخلائق أجمعين . .

قال الراعى : لقد سددت فمى ، وأحرقت روحى من الألم . .
ومزق قميصه ، وتآوه بحرقة ، واتجه إلى جانب الصحراء ، وسار .
ثم جاء الوحى يعاتب موسى : لقد جئت لوصل الناس بنا ، لا لفصلهم عنا . . نحن لا ننظر إلى الظاهر والقال ، بل ننظر إلى الباطن والحال . .
والشاهد - كما يقولون - فى قول الله سبحانه : (نحن لا ننظر إلى الظاهر والقال ، بل ننظر إلى الباطن والحال) . فالعبارة تبدو - فى ظاهرها - متمشية مع الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » ، وما أبعد الهدفين .

ذلك أن « الرومى » اتخذ قصته سلماً إلى الاجتهاد فى الوصول إلى الله بأى وسيلة ، وكأن الله لم يرسل رسله لتنظيم هذه الوسيلة ، وجعل من موسى - عليه السلام - شخصاً جاهلاً منفراً ، وكان بوسع أن يجعل موسى معلماً وهادياً لهذا الرجل « الجاهل » ، فيرشده إلى الله بكلماته ، وإلى الطريقة التى تتناسب مع جلاله .

سأل شمس الدين التبريزى جلال الدين الرومى : ما الغرض من تعلم العلم ؟ فأجاب : معرفة آداب الشريعة . قال شمس الدين : إن هذه كلها ألفاظ . فقال جلال الدين : فأجب أنت . قال شمس الدين : إنما العلم هو الذى يوصلك إلى المعلوم . . وأنشد للسائى : العلم الذى لا ينقذك من نفسك خير منه الجهل مائة مرة . .

والشاهد أيضًا في قول شمس الدين : « إنما العلم هو الذى يوصلك إلى
المعلوم » ، بمعنى : إذا وصل صاحبه لم يعد فى حاجة إليه ، مهما يكن هذا
العلم .

قال جلال الدين الرومى : إذا كان الشخص جالسًا فى حضرة السلطان
فالبحث عن الرسالة والرسول من الغباء . .
قالها جلال الدين عارية تمامًا .

ولقد قيل : إن رجلا جاء بشر الخافى - ت سنة ٢٢٧ هـ - فقال : إننى
أملك ألفى درهم ، أريد تركيتها ، لأنى عازم على الحج ، فقال له بشر : أنت
ذاهب للتفرج ، فإذا كنت ذاهبًا لله فاذهب وأقرضها لشخص ، أو أعطها
ليتيم ، أو لرجل خاوى الوفاض ، فإن راحة قلب مسلم أفضل من مائة
حجة . . قال الرجل : أرى رغبة فى الحج فى نفسى أقوى ، فقال بشر :
لأنك لم تحصل هذا المال بطريق حلال ، فلذلك لا يستقر لك قرار إلا بصرفه
فى غير وجوهه . .

يمكن أن يقال : إن هذا الخبر مصنوع لتأييد هذا المسلك الجديد ، فراويه
فريد الدين العطار ، ربما رواه سلمًا إلى قوله : لو كنت محبًا لجمال الحبيب فاعلم
أن القلب مرآة لقائه . .

يقول جلال الدين الرومى : أيها القوم الذين رحلتم إلى الحج ، أين أنتم ،
أين أنتم ؟ المعشوق ها هنا ، تعالوا ، تعالوا . . إذا كانت غايتم رؤية كعبة
الأرواح تلك ، فاصقلوا وجه المرأة أولا وقبل كل شيء . .

ويقول أبو يزيد البسطامى : كنت أطوف مدة حول البيت ، ولما وصلت
إلى الحق رأيت البيت يدور حولى .

ويعلم جلال الدين الرومي إبطال الشريعة في مرحلة الوصول بقوله :
لما كانت المرأة صافية مجلوة فمن الجهل القيام بصقلها^(٧٧) .

• • •

يمكن تأويل الأمثلة الواردة قبلُ بما تطيب له النفوس .
لكن مع غلبة الزيف ، وكثرة المتاجرين بالدين ، اتخذت مثل هذه
العبارات ذرائع إلى الدعاوى الباطلة ، والعبث بعقول السذج . . وبخاصة حين
صارت البلاد الإسلامية مسرحاً للظالمين والمغامرين ، من داخل البلاد ومن
خارجها . . وحين صارت الفتن تأتي على الأخضر واليابس من اقتصاد البلاد
ومن ضمائرهم . . ومن ثم أصبح همّ الصوفية في مظاهر خادعة ، وحلقات
للذكر تصطاد عقول العامة وجيوبهم ، دون أن تحارب بدعة ، أو تنشر معرفة ،
أو تثور في وجه ظالم . .
إلا أن هذا التحول لا يدفعنا إلى إنكار دور التصوف جملة ، في الوقت
الذي نردد فيه القول المشهور : ما فسد الإسلام ، ولكن فسد المسلمون . .

(٧٧) الأمثلة من (تاريخ التصوف في الإسلام) ، من أماكن مختلفة .